الْعُدُولُ فِي الْبِنْيَةِ الصَّرْفِيَّةِ

وَدَوْرُهُ فِي كَشْفِ الدَّلاَلَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

أ. د. جمال عبد العزيز أحمد

جامعة القاهرة / كلية دار العلوم

جمهورية مصر العربية

The leaping in Morphology structure, and It's Rule in Revealing The Quranic Indication

Prof. Dr. Jamal Abdul azeez Ahmed

Faculty of Dar al-Ulum.

Cairo University Republic of Egypt

ملخص البحث

قد يخرج التركيب عن مقتضى الظاهر، ولا يجري على سنن القاعدة النحوية أو الصرفية؛ وذلك لعلة يراها الذي جاء به على غير مقتضى القاعدة، وهو واقع كثيرًا في لغتنا العربية، وجارٍ على ألسنة كثير من علمائنا الأقدمين كالخليل وسيبويه والكسائي، وغيرهم، فالخروج على القياس أمر وارد، وقد وقع في كتاب الله، حيث نجد بعضا من ذلك في الجانب الصرفي، وله دلالاته القيمية والتربوية والإيمانية، وسأعرض لتلك الظاهرة: ظاهرة العدول الصرفي في كتاب الله – عز وجل–، وأبين دورها في كشف الدلالة القرآنية، وبيان عمق معانيها، وجلال مراميها، وأنه قد أدى وظيفة جديدة، هدف إليها القرآن الكريم من خلال هذا المسلك القرآني الجليل، وقد توزع ذلك على محاور تضمنت عشرة نماذج، وقفت أمام أنموذج بالتحليل والكشف عما وراء العدول من معان ودلالات، وما انطوت عليه من كمال وجلال، وبلاغة وحسن بيان.

الكلمات المفتاحية: (الدلالة القرآنية، العدول، النسبة الصرفية، الآثر الدلالي).

Abstract

To create the sentence upon it's apparent meaning may divert it from the grammatical base and morphology. And this diversion used by some authors and happens a lot in Arabic, and was used in many occasions by the ancient classic grammarians like Alkhalil, Sibawayh, and Alkesaee.

Therefore, diversion from the original grammatical base is possible, and this study will proof and indicate the morphological diversion in Quran, and will indicate it's rules in revealing the Quranic indication\ connotation \ Semantic, and discovering deeper interpretations of the Noble Quran.

Keywords: Quranic Semantic \connotation, diversion from original grammar base, the Semantic impacts

مدخل إلى محاور البحث

يؤدي علمُ الصرف دورًا لا يقل أهمية عن دور علم النحو في كشف دلالات القرآن الكريم، وبيان معانيه الدقيقة؛ حيث تأتي البِنْية الصرفية معمقة كاشفة موضحة لدلالات القرآن الكريم، ولعل رسوخ القدم في علم الصرف يكشف لنا عن بعض أوجه الإعجاز في القرآن الكريم؛ إذ نجد في مخالفة القاعدة النحوية، وعدم الجريان على نسقها المعهود وعلى وفق متطلباتها باعثا على التفكر فيها، وبيان مناحي الإعجاز في تلك المخالفة، أو في ذلك العدول؛ إذ إننا نجد عددًا من أبنية القرآن الكريم قد وردت في الظاهر مخالفة لأصل القاعدة النحوية، أو الصرفية؛ وذلك لغرض وهدف كبير، ولمعنى آخر نبيل، أراده القرآن الكريم، لم يكن واضحا لو ورد التركيب على وفاق، وأساس القاعدة، وقياسها.

وفي هذه السطور سنعرض بعضًا من تلك الصيغ الصرفية التي وردت شديدة الدلالة على المعنى الذي سيقت له، وهي من حيث الظاهر مخالفة للقياس الصرفي، أو المعيار النحوي، لكنها وردت في مكانها، وسياقها مشخصة تشخيصًا دقيقًا، تلك الدلالة التي جاءت لتنهض بما وراءها من مضمون، ولتبرز ما تحتها من دقيق المباني، ورقيق المعاني.

وحتى لا يكون الكلام مرسلا، لا برهان عليه، نأتي بجملةٍ لا بأس بها من هذه الصيغ، وتلك البِنَى لنقف على ما رمت إليه من دلالة، وما تحملتْه من مضمون، هو

المضمون المتحدَّث عنه في الآية، وشخصت إليه تمامًا بحيث لو فُصِّلَ عليه ثوبٌ لكان ثوبًا قشيبًا قيد النظر، باعثًا على الاندهاش، ومستثيرا للعجب، ثم لحمد الله على جلال كتابه، وإعجاز بناه، وتراكيبه، وسأعرض هنا لعشرة نماذج مختلفة تبين جمال اللفظة، وجلال ورودها على صورتها، وتشكيلها الصوتي والصرفي والدلالي.

دراسة محاور البحث ونماذجه صرفيا ودلاليا

المحور الأول: العدول عن بنية الحال المشتقة، إلى البنية الجامدة

النموذج الأول

يقول الله – تعالى-: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[1]، هنا قد جاءت كلمة (غَصْبًا) بوزن:(فَعْلًا)، وقد أعربها أهل النحو على ثلاثة أوجه الأول: أن تكون حالا، أي: غاصباً إياها غصباً، والثاني أنها مفعول لأجله، أي لأجل غصبها، وأخذها من أهلها عنوة ظالما إياهم، والثالث أنها مفعول مطلق، أي يغصبها غصبا.

وعندما نتوقف عند الإعراب الأول الذي مال إلى كونها حالا منصوبة- وهو الذى نحن بصدد الحديث عنه- نجد أن كلمة (غَصْبًا) مصدر، والمصدر جامد، والأصل في الحال الاشتقاق، فنقول: جاء محمد فَرِحًا(صفة مشبهة بالفعل)، وعاد زيد ماشيا (اسم فاعل)، وأتى الولد بَسَّامًا في وجه أمه (صيغة مبالغة)، ووقف عليٌّ أرجلَ ما يكون (أفعل تفضيل)، وحضر خالد مكتوف اليدين (اسم مفعول)، وهكذا، فتكون الحال واردة على إحدى صور الاشتقاق الخمسة المعروفة: اسم الفاعل، أو اسم المفعول، أو صيغ المبالغة، أو أفعل التفضيل، أو الصفة المشبهة، فكيف نوفِّق بين القياس النحوي، والاستعمال القرآني في هذه البنية الصرفية، أو ذلك الوجه الإعرابي؟

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

إن الغصب في أصل معناه في اللغة هو أخذ المرء ما ليس له، ونقرأ في المعاجم: «غَصَبَ الشيءَ غصبًا: أخذه قهرا وظلما، وغصبَ فلانًا على الشيء، قهره، فهو غاصب.

وهذا المعنى المعجمي يلتقي مع المعنى السياقي القرآني، فإذا كانت الحال الأصل فيها الاشتقاق، ووردت في معرض غصب السفينة، وأخذها قهرا من أصحابها، فإن القاعدة النحوية كذلك غصبت هي الأخرى، وتحولت الحال من اشتقاق إلى جمود، والأصل فيها الاشتقاق، فكأن معنى الغصب، وأخْذ الشيء قهرا في هذا السياق يلتقى مع أخذ السفينة من أهلها قهْرا، ودون سبب، وبغير حق، فكأنَّ القاعدة النحوية تلاقتْ في صياغتها مع الدلالة القرآنية(فعدل من (غاصبا) إلى (غصبا))، فالغصْبُ حَدَثَ للبِنْية، أو للصيغة قبل أن يَحْدُثَ العيبُ في الواقع؛ ليدلَّ بتشكيلة الصيغة، وهيئة البِنية على ما حدث وراءها من غصب، وقهر، وأخْذ لما ليس للإنسان، ووجدنا هنا كيف تعانقت البنية الصرفية، مع الوجه الإعرابي، مع الدلالة القرآنية، مع العدول والانحراف عن أصل البنية إلى معدولها، فتلاقى، وتماشى، وتناغم مع المعنى الذى سيقت له تلك البنية، فهو غصْبٌ للقاعدة الصرفية يكشف عن غَصْبِ الملك قهْرا للسفينة الصالحة للصيد؛ إذ كان هذا الملكُ الظالم يأخذ كلَّ سفينة صالحة غصبًا من أهلها أي غاصبا إياها منهم، وهم مساكين، لا حول لهم، ولا طول، فجاء الخضر – عليه السلام – بعلمه الذي علَّمه الله إياه؛ لِيُحْدِثَ عيبًا يسيرا فيها؛ حتى يزهدَ هذا الملكُ فيها، ويتركها، ثم يصلحها المساكين، ويعتاشون منها، ومما يرتزقون به من خلالها؛ ومن ثَمَّ فإن الآية قد أبرزت جهلَ هذا الملك، واهتراءَه، وضعفَه الفكريَّ، حيث جاءت كلماتها كالآتي: (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)؛ ليدل على أنه جاهل، متسلط، صُلْبَ المعاملة، لا يقف أمامه أحدٌ، ولكنَّ المعربين هم الذين قالوا بحذف النعت، وقدروه، فقالوا: (أي سفينة صالحة) بسبب السياق، بدليل أنه جاء بعدها: (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا)، ولا يحدث عيبٌ لشيء مَّا إلا إذا كان صالحًا، وغيرَ معيب،

ولكنَّ كلمات الآية نفسها لم تذكر الصيغة (صالحة) صريحة، وإنما قدّرت ضِمْنيا، وفيه كناية عن صلف، وتسلط، وجبروت، وجهل، وكِبْرِ هذا الملك أن يتمم كلامه، أو أن يكون كلاما موزونا، معتبرا في عالم الكبار أصحاب التعبيرات الدقيقة، وهكذا هم قساةُ القلوب، صلابُ الأفئدة، تراهم لا يحسنون الكلام، ولا يدركون ظلاله، وتبعاته الدلالية، ويحرِّفون الكلام عن مواضعه.

ملحوظة مهمة

حدث هذا مع فرعون حيث حكى القرآن الكريم جهلَه، وعدم تفرقته في الاستعمال بين(من، ما)، فقال فرعون عن رب العالمين: (وما رب العالمين؟) مع أن (ما) لغير العاقل، وكان لو كان بليغا واعيا لما ينفوه به – لقال: (ومن رب العالمين)؟؛ لأن (مَنْ) للعاقل، و(ما) لغير العاقل، فهو قد قالها إما جهلا منه، وعدم إدراك، وإما صلفا وكبرا، (أيا مَّا كانت لغته)، ولكن الله أعطانا صورة عن جهل من يدَّعي الألوهية أنه ليست له أيُّ خلفية لغوية، وهو جَهول في فكره، وجهول في نطقه، وسلوكه، وتعقيباته، ومنطقه، كما قال: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾، ونحو: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾، ونحو: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾، وكلها مواقف يجب فيه سرعة اتخاذ القرار، لكننا نجده يتلكأ هنا، وهناك، (وكما نقول في الدارجة يتسكع) في الردِّ، في الوقت الذي لا وقت فيه للتسكع، والتلكؤ، وأنه سيغرَق في اليم لا محالة؛ حتى ضاعت منه الفرصة التي كان يمكن له النجاة لو تعجل، وآمن، ولكنْ غباء منه، وجهل، وغطرسة، وكبر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وكان يمكنه لو كان فهما لبقًا لسارع، وقال:(آمنتُ بالله) دون تلكؤ وتباطؤ، ولعله يتلمس أحدا من الناس يُنقذه، أو يدركه إنسان من البشر، فتبرز الآيات مهانته، وضعفه، وتظهر كذلك كبرياءه وجمود فكره، وضيقِ عَطَنِهِ، فلو كان إلهًا لأنقذ نفسه، أو لأمر بحضور مَنْ ينقذه،

لكنه ظل يترنح، ويتباطأ حتى هلك، وأهلكته كبرياؤه، وأضاعه صلفه، وأغرقه كبره، وأماتته ملعونا غطرسته.

وكثيرًا ما يقف المتأمل لآيات القرآن الكريم عن شخصية فرعون، أنه شخص ضعيف، لا حول له، ولا طول، ولغته ضعيفة، وحجته مائعة كذاته تمامًا، وأنه سريع الاتهام، سريع التهديد، والصخب، وعلو الصوت، وكلُّها من صفات الضعفاء، ولا سِيمَا الجهلاء الذين لا رزانة عندهم، ولا بُعْدَ نظرٍ لهم، يمتلكونه، ولا لغةَ يمكنهم من خلالها إدارة حديث مقنع منطقي بَنَّاء.

المحور الثاني: العدول عن المصدر القياسي إلى المصدر السماعي

النموذج الثاني

من نماذج دقة اختيار البنية الصرفية، ودقة مجيئها على وفق الدلالة التي سيقت لها في الآية، هو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ و(كِذَّابًا) بكسر الكاف، وتشديد الذال مفتوحة بوزن (فِعَّالًا)، ليست مصدرا للفعل (فعل) بتشديد العين مفتوحة، والتفعيل هو مصدر الفعل (فَعَّلَ)، وليس (الفِعَّال)، وذلك نحو: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾، ونحو: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾، ونحو: ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ من الفعل: (تَبَّبَ)، بوزن فعَّل، ونحو: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾، وهكذا.

لكنَّ القرآن الكريم يعدل عن الصيغة القياسية إلى غيرها وهو لفظ مستعمل كذلك –، لكنه يوافق السياق هنا، ويتناغم مع الدلالة التي أرادها القرآن الكريم في هذا الموطن، وفي ذلك الموضع، فـ(كذّابا) –كما قال عنها العلماء – لغة يمنية، وبعضهم قال: التكذيب لغة أهل الحجاز، وبعضهم فرَّق بين (التكذيب، والكِذَّاب)، فقال: الكِذَّاب هو التكذيب المفرط، وليس مجرد التكذيب فقط، وإنما الزيادة في الكذب، والمبالغة فيه، فعندما نقول:

فلان يكذب كِذَّابا، ويقضي قِضَّاء، أو يفسِّر فِسَّارا - فيعني ذلك أن فيه إفراطا في ذلك، فهو قد أفرط في الكذب، وليس كذبه كأي كذب؛ ومن ثم فهو أفرط في ذلك، ووزن (فِعَّال) من أوزان المبالغة، وهو مفعول مطلق، تقديره: (وكذبوا بآياتنا تكذيبا).

والشاهد هنا هو أن (فعَّل) مصدره (التفعيل)، كما سبق، ولكن القرآن الكريم اختار الوزن الثاني الذي ليس بمصدر قياسي، كأنَّ الكلمة بتنكُّبها المصدرَ القياسيَّ قد تلبَّسَتْ، واتَّشَحَتْ بثياب، ووشاح الكذبِ المبالغ فيه؛ لتدل على معناها من خلال سياقها الذي وردتْ فيه، وهو الكذب الضارب في الكذب، فجاءت الصيغة لابسةً ثوبَ الكذب ببُعْدها عن مصدرها المعتاد، والأساسي لها، وكأنها جزءٌ من دلالتها، وصورة مما جاءت لتبيينه، وتوضيحه، والكشف عنه، فهي صيغة متفقة مع دلالتها، وما جاءت له، فوافق السياق بنية الكلمة المعدول بها، وتشكيلتها الصوتية.، فأدت في سياقها جمال معناها.

المحور الثالث: العدول عن الإبقاء على عين المصدر ياء وقلبها همزةً سماعًا

النموذج الثالث

هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

فكلمة (رئاء الناس) مفعول لأجله، وكأنها خالفت ما عليه الصيغة التي نعرفها جميعا، وهي (الرياء)، غير أن الرئاء هي أصل بنية الكلمة قبل تخفيف همزتها، فأصلها من الفعل (رأى) بهمزة مقابلة لعين الميزان، ثم زيدت ألف المفاعلة بعد الراء، فصارت

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(راءى)، ومصدرها (رِياءً، ومراءاة)، فأي فعل على وزن (فاعل) له مصدران الفِعال، والمُفاعلة) ما لم يكن يائي الفاء (كيَاوَمَهُ أيْ عامله يوما بيوم، فأعطاه أجر كل يوم على حدةٍ، فعندئذ تجب المفاعلة ويمتنع الفِعال) أيْ ياومه مياومَةً، ولا نقول:» ياومه يِوَامًا»، فأصلها (رِئاء) الهمزة الأولى هي عين الكلمة، والهمزة الأخيرة مبدلة من ياء؛ لوقوعها متطرفة قبل ألف زائدة، فالأصل فيها: (رِئَاء) فظلت على همزتها، ولم تخلد إلى القاعدة، وتقلب ياء لكسر ما قبلها؛ تحقيقًا لمدلولها، وتماشيا مع سياقها، ولُبْسًا لثوب ليس لها – حيث لم تبق ياء، وبقيت همزتها الأولى (رِئَاء)، وأبدلت بالهمزة مرة أخرى، وكأنها راءت، وارتدت ثوبَ غيرها، كما قال الشاعر أبو ذؤيب:

ثـوبُ الريـاءِ يشـف عـما تحتـه ... فـإذا التحفـت بـه فإنـك عـاري

وظهرت هذه الصيغة بمظهر ليس لها في الأصل، كما لو ارتدى فقيرٌ ثوبَ غنيّ، أو ارتدى عليلٌ ثوبَ صحيح، وكشفت الكلمةُ عن أن الرياء لا يخفى على أهل الحق، وأنَّ المنافق المرائي الناس بفعله والذي تحدثت عنه الآية مكشوفةٌ ثيابُه، وأنه يبدو متصدقا، لكنه على غير حقيقته، فهو منافق بخيل رغم تصدقه، لا ثواب له، رغم إنفاقه، تمامًا كما فعلت تلك الكلمة (رئاء) التي ظهرت بسيماءَ ليست لها، وارتدت الصيغةُ الصرفية حُلتها الجديدة، إلا أنها معلومة، معروفة، وواضحة، مكشوفة.

المحور الرابع: العدول عن موجب الإعلال في الصيغة إلى صيغة غير مُعَلَّة

النموذج الرابع

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1].

الفعل:(استحوذ) بوزن (استفعل)، والقاعدة هنا توجب أن يكون الفعل بهذه الصيغة: (استحَاذَ)، وليس (استحْوَذَ) بسبب الإعلال بالنقل الذي ترتب عليه إعلال بالقلب كما في نحو: استقال، استشاط، استمات، استقام، ونحوها، لكن القرآن هنا عدل إلى أصل الصيغة، وهى (استحوذ) قبل أي تغيير فيها، وجعل الواو محققةً، ولم يقلبها إلى ألف، مع وجود موجب قلبها ألفا، ومعنى استحوذ: غلب، واستعلى، وقَوِيَ عليهم، وأحاط بهم، وجمعهم، وضمهم، من قولك: أحوذ الشيءَ: أي جمعه، وضمّ بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم، وقَوِيَ عليهم، وأحاط بهم، واستولى عليهم، فالاستحواذ إذاً هو الاستيلاء والغلبة، وهو (استفعال) من: (حاذ حوذا): إذا أحاط بشيءٍ، وصرَّفه كيف يريد، قالوا: حاذ العيرَ: إذا جمعها، وساقها غالبا لها، فاشتقوا من (استفعل) للذي يستولي بتدبيرٍ، ومعالجة؛ ولذلك لا يقال: (استحواذ) إلا فى استيلاء العاقل؛ لأنه يتطلب وسائل استيلاء، ومثله: (استولى)، والسين والتاء للمبالغة في الغلب، ومثله: (استجاب)، والأحوذيُّ هو القاهر للأمور الصعبة، وقالت عائشة رضى الله عنها: (كان عمر أحوذيا نسيج وحده)، ولكن كان حق (استحوذ) أن يقلب عينه ألفا؛ لأن أصلها واو متحركة إثر ساكن صحيح، وهو اسم غير تعجب، ولا مضاعَفُ اللام، ولا معتلُّ اللام، فحقها أن تُنقَل حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها فرارا من ثقل الحركة على حرف العلة، مع إمكان الاحتفاظ بتلك الحركة بنقلها إلى الحرف الذي قبلها الخالي من الحركة، فيبقى حرف العلة ساكنا سكونا ميتا إثر حركة، فيقلب مَدَّةً مجانسة للحركة التي قبلها مثل: يقوم، ويبين، وأقام، فحق (استحوذ) أن

(١) سورة المجادلة، الآيات: ١٧-١٩.

يقال فيه: (استحاذ)، ولكن الفصيح فيه تصحيح، على خلاف غالب بابه، وهو تصحيح سماعي، وله نظائر قليلة، منها قول العرب: استنوق الجمل، وأعول: إذا رفع صوتَه، وأغيمت السماء، واستغيل الصبي: إذا شرب الغيل، وهو لبن الحامل، وقال أبو زيد: (والتصحيح هو لغة لبعض العرب مطردة في هذا الباب كله).

وحكى المفسرون أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ: (استحاذ عليهم الشيطان)، وقال الجوهري: (تصحيح هذا الباب كله مطرد)، وقال في التسهيل: (يطرد تصحيح هذا الباب في كل فعل أهمل ثلاثيُّه، مثل: استنوق الجمل، واستتيست الشاة: إذ صارت كالتيس). ولكنني أضيف أن قياس وزن مصدر: (استفعل) المعتل الوسط كـ(استحاذ): استفعلة، أو استفالة، فالقياس أن نقول: استحاذ استحاذة، واستقال استقالة، واستقام استقامة ونحوها، ولكن القرآن آثَرَ هنا تصحيح الواو في: (استحوذ)؛ لأن الشيطان يستحوذ، ويغلب، ويستولي، ويقهر، فكأن الصيغة الصرفية هنا جاءت للتنبيه على ما تحتها من دلالة، وما تحملته من معنى درج عليه الشيطان، ولاسيما ممن يرتكنون إليه، ويميلون إلى ضعف بشريتهم، ويجرون وراء معاصيهم، فعندئذ يتغلب عليهم الشيطان، ويقوى، ويفرض سيطرته عليهم، تماما كما فعلت صيغة (استحوذ) التي تغلبت على صيغة (استحاذ)، مع وجود موجب إعلالها، وهو تحرك الواو، وانفتاح ما قبلها، ومثل ذلك يقال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

أي: ألم نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين، ونمنعكم منهم بتخذيلنا إياهم، حتى

(١) سورة النساء، الآية: ١٤١.

امتنعوا عنكم، فانصرفوا بعد أنْ كنَّا نحن الذين نثبطهم عنكم، وفي اللغة: (حاذ عليه، واستحاذ يَحيذ، ويستحيذ، وأحاذ يُحِيذ، وكان القياس كما سبق أن يأتي: (استحاذ عليهم الشيطان) و(ألم نستحذ عليكم)؛ لأن الواو إذا كانت عينَ الفعل، وكانت متحركة بالفتح، وما قبلها ساكن جعلتِ العربُ حركتها في فاء الفعل قبلها، وحوَّلوها ألفًا متبعة حركة ما قبلها، كقولهم: (استحال هذا الشيء عما كان عليه)، من: (حال يحول)، و(استنار فلان بنور الله)، من النور، واستعاذ بالله من: (عاذ يعوذ)، وربما تركوا ذلك على أصله، كما قال لبيد: (إذا اجتمعت وأحوذ جانبيها) أي غلبها وقهرها، حتى حاذ كلا جانبيها، فلم يشذَّ منها شيء، ولم يقل: (أحاذ)، وبهذه اللغة جاء القرآن الكريم في قوله: (استحوذ عليهم الشيطان)، وكذلك في قوله تعالى: (ألم نستحوذ عليكم».

وأعود، فأقول: إن الصيغة الصرفية كان حقها أن تجيء: (ألم نستحِذْ)، لكنْ بقيت في كتاب الله هكذا: (ألم نستحوِذْ) بواو محققة مكسورة، وقبلها حاء صحيحة ساكنة، بعدم حدوث أيِّ إعلال، لا بنقل، ولا بحذف، تغلبًا وقهرًا، واستيحاذا، أو استحواذا – على لغة القرآن الكريم في هذه اللفظة –، كما هو الحاصل من هؤلاء القائلين المتغلبين، فالصيغة الصرفية تتماشى مع الدلالة القرآنية، وهو أمر عجيب حقًّا.

المحور الخامس: العدول عن صيغة التعدي إلى اللزوم، وإلى أوزان الصفة المشبهة

النموذج الخامس

قوله تعالى: ﴿ خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

(١) سورة القصص، الآيات: ٢٣-٢٥.

لن نتوقف هنا إلا عند قول الأختين الحييتين الملتزمتين لموسى - عليه السلام-:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

ونعرض كذلك لرد سيدنا موسى- عليه السلام- عليهما، إنه يمثِّل أعلى مراتب الحياء، وسنرى كيف شُخِّصَ الحياءُ لغويًّا، وكيف جاءت عباراته، وكلماته ترسم بحقٍّ كمال فضيلة الحياء، وكيف تمثَّل احمرار الوجه، ودماثة الخجل لغويا، والحياء هو قلة كلام يدفع إليه أدبٌ جَمٌّ، وتربية صالحة، وخلق حسن، ولاسيّما عندما يتأتَّى من بنات الأنبياء، والصالحين، ويخاطِبُون أنبياءَ، وصالحين، وسنجد هذا الحياء قد شُكِّلَ لغويًّا في قصر الجملة، والاقتصار منها على عناصرها الأساسية، وأركانها الأولية التي لا تقوم إلا بها، فيُحذَف المفعولان، ويُؤتَى بالأفعال اللازمة، التي لا تتعدى أصلا، أو الأفعال المبنية للمجهول، وفي كل جملة اسمية أو فعلية يُقتَصر فيها على الركنين الأساسيين فقط، أو على الذي ينهض بمعناها، وكأن الجملة قد استحيتْ هي الأخرى، وتضاغطت كلماتها، وتداخلت ألفاظها، وانزوتْ خجلا وحياءً، ونرى ذلك في الأفعال: (يسقون وتذودان) حيث لم يؤتَ بمفعوليهما، فلم يُؤْتَ بمفعوليْ (يسقى)، ولا بمفعول (تذود)،

(١) سورة القصص، الآيات: ٢٣-٢٧.

كلُّ ذلك داخل في مفهوم الخجل، ودلالة الحياء، وعندما تكلم موسى عليه السلام قال جملة حييَّة مختصرة: (ما خطبكما)؟

فأوجز، واقتصر على المبتدأ والخبر، وهما الركنان الأساسيان، والعنصران النحويان لتركيب الجملة الاسمية؛ ذلك لأنه يكلِّم فتاتين محترمتين، لا تختلطان بالرجال، وتعرفان آدابَ الوجود في مجتمع الرجال، وحدود الاختلاط بالناس، فاستحيا حتى إنه قال كلمتين فقط: (ما خطبكما)، هما المبتدأ والخبر، وكأنه يتآكلُ حياءً، ويتداخل نُبْلا، ويتضاغط خلقا، فماذا كان رد الفتاتين الحييتين؟

لقد بادلتاه في نفَسٍ واحد: (قالتا لا نسقى)، أيْ تكلمتا في نفَس واحد، حتى إنه لم يعرف مَنْ تكلمتْ منهما، (قالتا) جعل ألف الاثنين تعبر عنهما معًا، كأنهما بدأتا في لحظة واحدة، وانتهتا في لحظة واحدة كذلك، ثم إنهما حذفتا- في ردهما عليه المفعولين كاملين حياء، فلم تقولا: (لا نسقي إبلَنا ماء)؛ ذلك لأن السياق يوضِّحه فلا داعيَ لإيراده، (وحذف ما يعلم جائز)، وهُنَّ الحييَّات التقيَّات، الورعات، النقيات؛ فحياؤهن منعهن من أن يقولاه، وحذفاه معًا، ثم زادا فقالا: (وأبونا شيخ كبير)، أيْ ذكرتا له الضرورة الشرعية المُلْجِئَة لهما للخروج، وأهل الدين والخلق يقدِّران هذا الحياء النادر، ويعرفون كم يكلف صاحبه، فالفتاتان ذابتا في بعضهما، وتآكلتا خجلا، حتى إنهما معًا - كما حكى الكتاب العزيز -: (قالتا، والعبارة الأولى فعلية منفية: (لا نسقى) وهما قد حُذِفَ مفعولاهما، ثم عبرا بعد ذلك أيضا بالفعل اللازم القاصر غير المتعدِّي (حتى يُصْدِرَ الرعاءُ) أي حتى يخلوَ المكانُ من الرُّعْيان والإبل، فلا مجال للاختلاط، ولا يجوز لنا ذلك، فقد اكتفتا بالفعل اللازم، وجملته قصيرة تتناغم مع سياق الحياء، ثم جاءت الجملة الاسمية البسيطة: (وأبونا شيخ كبير)، مبتدأ وخبر، وصفة للخبر مهمة للغاية؛ إذ إن كلمة (شيخ) صفة مشبهة، تدل على ثبوت الصفة واستمرارها وأزليتها، أي أكلتْه

الشيخوخة، حتى تقوَّس ظهره، وخلا فمُه، وصار يمشي على أربع، ووصف (شيخ) بقولها: (كبير)، وهي كذلك صفة مشبهة؛ ذلك ليُظِهرا أنه طاعنٌ في السن، ولا يستطيع حراكًا، ناهيك عن أن يكون منه خروج، وسَوْقُ النوق، ورعي البقر والغنم، وتعقُّبها إذا شردت، والدخول في أتُونِ الزحام، والثَّجّ، والعَجّ، والأرض التي تعُجُّ بالماء والطين، ونحو ذلك مما هو مشاهد معروف عند مَسْقَى الغنم والإبل، وغيرها، والجميع يدرك هذه الملحمة، وذاك الصوت المختلط، والعمل المتواصل، ولكن بِمَ واجههم النبيُّ موسى عليه السلام؟! لم تمهل الآية القارئ كثيرًا حتى قالت حديثه الذي ورد متضمنا فاء العطف التي تفيد الترتيب والتعقيب: (فسقى لهما) أي عاجل موسى هاتين الفتاتين بالسقي لهما، ولم يفكر لحظة في مال يأخذه منهما، أو في مقابل يسألهما عنه، مع احتياجه الشديد إلى المال، ولو أخذ منهما مالا على تعبه لما كان متجنِّيًا عليهما، وإنما قال القرآن بعدها مباشرة: (فسقى لهما)، ولم يكمل الجملة، أيْ لم يأت بالمفعولين كما لم يأتيا بهما سلفا، فلم يقل: (فسقى لهما الإبل ماء)، ولم يتكلم معهما، ولم يستغلَّ حاجة البنتين، ويذكر أنه فلان بن فلان، وأنه يأتي هنا تباعًا في ساعة كذا وكذا، ولم يظهر مهاراتِه أمامهما؛ ليستميل عاطفتهما، وقلبيهما، كما يفعل بعضنا في مثل هذه المواطن، وتلك المواقف، ولم يستعرض عضلاتِه أمام البنات الحيِيَّات، لكنه مباشرة سقى، وكما حكى القرآن الكريم: (ثم تولى إلى الظل)، فقال مناشدا داعيا مخاطبا ربه: (ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خير فقيرٌ) خاطب ربَّه، فأسهب هنا، وأتى بأساليب عدّةٍ، منها النداء (ربِّ، أي يا ربي)، ومنها التوكيد (إني...)، وتقديم ما حقه التأخير (لما أنزلت إلي من خير فقير)، فأطال الحديث مع ربه، وأسهب في الكلام، ولكنه استحيا مع الفتاتين الحييتين المحترمتين.

ثم جاء الخير وفضل الله له عاجلا: (عمل وزواج)، قال القرآن الكريم: (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا...) إلى أن

قال له شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

أي أنه بحيائه، وكمال خلقه تنزلت عليه الرحمات، فعُرِض عليه العمل، مصحوبا بالزواج واستقرار الحياة، يا له من فضل، والشاهد هنا أن الحياء تشخَّص أمامنا لغويًّا في جملة من الأثواب اللغوية الحيِيَّة، في الآتي: قِصَر الجملة، وحذف أركانها، واقتصار بعضها على الأركان الأساسية لها، وهذا حدث من كل طرف (من المتحدث، ومن المخاطب)، والحذوف كذلك الواردة في الجمل الفعلية، وكذا استعمال الأفعال اللازمة لا المتعدية، فالسياق لا يحتمل تعديا، ولا كثرة ألفاظ، بل السياق نفسه حيِيٌّ يتكتم الألفاظ، ويحمر وجهه خجلا وحياء. فيا لها من لغة كريمة!، عبرت عن الحياء خير تعبير!! ويا لها من تراكيبَ قرآنية عجيبة! ترسم لنا المعنى والدلالة التي سيقت لها بأسلوب راقٍ دالٍّ على عميق المعنى، وجليل المفهوم، وقد تناغم مع اللغة السياق، وتآلفت اللغة مع المعنى والسباق، وهكذا ترى العدول عن سنن القاعدة كانت سبيلا لكشف جلال النص.

المحور السادس: العدول عن صيغة الفعل الكاملة دون حذف (يفعل) واسم الفاعل (الفاعل) دون حذف إلى صيغ حُذِفت أواخرها للرسم العثماني: (بوزن (يفع) و(الفاع))

النموذج السادس

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾[2]، حيث جاء الرسم المصحفي لِبِنْية الفعل محذوف اللام، مع عدم وجود الجازم، ومعلوم أنَّ لام المعتل تُحذَف إذا

(١) سورة القصص، الآية: ٢٧.

(٢) سورة القمر، الآية: ٦.

تقدمها جازم، وهنا لم يتقدم جازم حتى تحذفَ، وإنّ اسم الفاعل هنا: (الداع) حذفت منه هو الآخر لامه، التي هي الياء من(الداعي) مع أنه معرَّف بأل، والمعرف بأل تدخله ياء النقص كالمضاف، فالقاعدة أن ياء المنقوص تبقي في آخره لا تحذف إذا عُرِّف أو أُضِيفَ، وهنا هو معرَّف، لكنَّ ياءه التي كانت واوا، وقُلبت ياء؛ لتطرفها إثر كسر، حُذِفت، مع تعريفه، ورسم المصحف رسمٌ توقيفيٌّ، لا توفيقي، فما السبب إذاً في مجيء كلٍّ من بنية الفعل، واسم الفاعل محذوفتي الآخر؟

لعل حذف الأواخر ورد هنا؛ ليتناغم مع سياق الآيات التي تتحدث عن أحداث يوم القيامة، وخروج الناس سراعًا إلى نُصُب يوفضون، مهطعين إلى الداعي، وكلٌّ يفر من أخيه، وأمه، وأبيه، وصاحبته، وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، ويوم يفر المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعا، ثم ينجيه، يومٌ تتطاير فيه الصحف، والجميعُ منشغلٌ بهمِّه، وعمله، يوم يتذكر الإنسان فيه كل ما سعى، والجميع تراهم كالسكارى، وما هم بسكارى، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، يوم يتذكر الإنسان، وأنَّى له الذكرى، يوم تُعرَضون لا تخفى منكم خافية، هنا، الجميع يجري، ويسرع نحو الداعي، فتنقلنا البنية القرآنية نقلة مرئية للحظات الآخرة، وأحداثها الحاصلة في توها، ومن فورها، وكأنها تذاع على الهواء مباشرة لشيء من أعمال هذا اليوم الآخر، الذي هو كخمسين ألف سنة مما تعدُّون، حتى إنَّ أحرف الكلمة هي الأخرى من هلعها، ووجلها، وخوفها، ورُعبها تساقطتْ حروفُها، وهي لا تدري، ولا تريد أن تدري، فهي من الهلع بحيث نسيتْ أجزاءَها، وهي مهطعة هي الأخرى؛ لتلقى حتفها، وتنظر حالها، وتتعرف وضعها، فكأنَّ القرآن بهذا الحذف، في هاتيك البنية قد أوْجَدَنَا في مشاعر، ودفع بنا لنرى أوضاع وأحاسيس اليوم الآخر، فكلنا مشغول، مهموم بنفسه، ومصيره مهموم، وهو مصير

محتوم، لا يرى الشخص من حوله، حتى اللفظ يَسَّاقَط خوفا، ويتقطع هلعا، وتذهب بعض أجزائه، فيتركها، لا يعوِّل، ولا يعرِّج ليأخذها قائلا، وهو باكٍ منتحب مع الباكين المنتحبين، والجميع يردد: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ

ولأهميته، أبين إعراب ما جاء به رسم المصحف في الآية الكريمة؛ لأيَسِّرَ على القارئ أن يذهب هنا، وهناك، وهنالك للحصول على إعرابه، رغم ما قد يقال من أنه جانب تركيبي لا صرفي فأمر التوجيه النحوي يتعلق بالإعراب، أي بالتركيب والنحو، إلا أن الصيغة التي سأعربها كانت قد تحوَّلت فيها البِنية الصرفية في الأصل من وزن إلى وزن بسبب الرسم المصحفي؛ مما استدعى توضيح العدول الصرفي، وتبعه بيان وجه البلاغة هنا، ومنحى الجلال والقيمة الإيمانية ونقلنا مباشرة إلى أحداث الآخرة، وأعمال يوم القيامة، من خلال بيان ما أحاط هذا الرسم القرآني الكريم من دلالة، وما جره ذلك العدول في تلك البنية الصرفية من معنى لا يمكن أن نفهمه إلا من خلال هذا العدول من وزن:(يفعُل يدعو) إلى وزن(يفعُ يدعُ)، ففي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾، حيث جاء الرسم المصحفي لِبِنْية الفعل محذوف اللام، مع عدم وجود الجازم، ومعلوم أنَّ لام المعتل تُحذَف إذا تقدمها جازم، وهنا لم يتقدم جازم حتى تحذفَ، وإنّ اسم الفاعل هنا: (الداع) حذفت منه هو الآخر لامه، التي هي الياء من(الداعي) مع أنه معرَّف بأل، والمعرف بأل تدخله ياء النقص كالمضاف، فالقاعدة أنَّ ياء المنقوص تبقى في آخره لا تحذف إذا عُرِّف أو أُضِيفَ، وهنا هو معرَّف، لكنَّ ياءه التي كانت واوا، وقُلبت ياء؛ لتطرفها إثر كسر، حُذِفت، مع تعريفه، ورسم المصحف رسمٌ توقيفيٌّ، لا توفيقي، فما السبب إذاً في مجيء كلٍّ من بنية الفعل، واسم الفاعل محذوفتي الآخر؟

والمُعْربون يقولون في إعراب مثل ذلك العدول ما هو عنهم مأثور من قولهم: -إن الفعل هنا مرفوع؛ لعدم تقدم الناصب والجازم، ثم يروحون يقدِّرون علامة

رفعه على ذلك الحرف المحذوف، بسبب الرسم المصحفي، أو الرسم العثماني، فتراهم جعلوا رسم المصحف علة يرتكنون إليها، ويعللون بها، فيقال في مثل ذلك في كتبهم: يدعُ: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الواو المحذوفة للرسم العثماني، أو بسبب الرسم المصحفي، أو لعلة الرسم المصحفي، وكذلك في إعراب كلمة: «الداع»، في قوله تعالى: «يوم يدعُ الداعِ إلى شيء نكر» فالداعِ: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الضمة المقدرة على الياء المحذوفة لعلة الرسم المصحفي، أو لعلة الرسم العثماني، وهكذا في غيرها، مما حذف منه آخره لعلة الرسم المصحفي وليس لعلة نحوية، ولا صرفية، ولكن لعلة الرسم المصحوب بجلال الدلالة وجمال المراد، وكمال المقصود بمخالفة القياس، وعدم جريان الصيغة على ما هي له، ومجيئها على وفق خطِّ المصحفِ، وهو رسم توقيفي لا توفيقي، فلا يجوز رسمها ولا كتابتها إلا على الكِتْبَةِ الأولى كما يقول الإمام الداني.

المحور السابع: العدول من الصيغ التي لا تؤنث (في الأصل) إلى الصيغ التي تؤنث

النموذج السابع

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

المعهود في لغة العرب أنه إذا كانت هناك صفة تجمع بين المؤنث والمذكر، فإن اللغة تضع التاء مع المؤنث؛ لتفصل بين مستويَي الكلام، تقول: (عادل ممتاز)، و(فاطمة ممتازة)، و(هذا الطالب مؤدب)، و(تلك الطالبة مؤدبة)، و(هذا مصنع كبير، وتلك مؤسسة عملاقة)، وهكذا تضع اللغة التاء إذا كانت الصفة مشتركة بينهما فقط.

(١) سورة الحج، الآية: ٢.

أما إذا كانت الصفة تتمتع بها المرأة وحدها دون الرجل فلا داعي لوجود تاء التأنيث، مثل: (فلانة مرضع وحائض وطامث، وحامل، وطالق، وطاهر، ومطفل (ذات أطفال)).

هنا لا حاجة، ولا ضرورة لمجيء تاء التأنيث بسبب أن الصفة لا تُشارَك فيها المرأة، لكن هذه الآية الكريمة قد جاءت مخالفة لما عليه القياسُ اللغوي السابق في الظاهر، حيث جاءت كلمة مرضعة بالتاء، على الرغم من أن الرجل لا يُرضِع، وليس ثمة مقارنة، أو مشاركة بينهما في مثل ذلك البتة، فَلِمَ عدل القرآن، ووضع تاء التأنيث في موضع لا يكون فيه مقارنة بين المذكر والمؤنث، وليس من بين الصيغ التي أجيز فيها التسوية بين المؤنث والمذكر المشهورة كوزن فَعِيل أو فَعُول، فإنه إن ذُكِرَ الموصوف فلا حاجة إلى التاء المربوطة، وإن لم يُذكَر فلا بد من استعمالها: نقول: (رجل قتيل، وامرأة قتيل)، ويمكن أن نقول: (رأيت قتيلا أو رأيت قتيلة)، ومثلها: (شَعْر خضيب، ويد خضيب، وعين كَحِيلٌ)، ونقول كذلك: (رجل صبور، وامرأة صبور، وبنت شكور، وأم عجوز)، ونقول: (عجوز شمطاء)، بزيادة صفة ثانية مؤنثة للدلالة على أنها امرأة، ونقول: (امرأة معطارٌ، أو مذكارٌ) (تنجب الذكور)، أو (مِئْناثٌ) (تنجب الإناث) وكذلك نقول: (هذه معطار تمشي في الشارع) بتأنيث الفعل للدلالة على أنها أنثى، فإن لم تذكر قرينة فلابد من وضع تاء التأنيث، فنقول: معطارة، لا معطار.

أقول: فَلِمَ عَدَلَ القرآنُ الكريمُ، ووضع تاء التأنيث في موضع لا يكون فيه ثمة مقارنة بين المذكر والمؤنث، وليس من بين الصيغ التي أجيز فيها التسوية بين المؤنث والمذكر، وأن المرأة وحدها فقط هي التي تتمتع بهذه الصفة، ولا يشاركها فيها الرجالُ؟! إن مما ذكروه في هذا الموطن أن المرضع بغير تاء هي مَنْ مِنْ شأنها أن ترضع، مَنْ مِنْ شأنها الإرضاع، وإنْ لم تكن متلبِّسة بالرضاع الآنَ، فكلُّ فتاة وامرأة وسيدة هي مرضع ومجهزة للإرضاع

عندما تحمل، أيْ هي مجهزة لذلك في أيِّ لحظة حتى يعيش وليدها، أما المرضعة بالتاء فهي المتلبِّسة بالرضاع الآن، ووليدها على صدرها ينال حظَّه من الرضاع، والحنان، والرقة، والتحنان، وهو في ذلك الموضع تكون بينه وبين أمه لغة خاصة، هو يلتقم ثديها، ثم يتركه، وهي تقدِّمه له عن طيب خاطر، ثم تراه مرة يضرب بأنفه فيه، ثم يلتقمه، وهي تلعب في شعره تارة، وفي ظهره بيديها الناعمتين تارة أخرى، تسكب حنانها في جسده، وهو تارة يعاود وضع قدميْه الصغيرتين الناعمتين في بطنها، ويتدلل عليها، وهي تزداد لَمْسا بحنانها في ظهره، وتمشي بأصابعها الحنون في شعره، ويغيبان عن الوعي في لغة حنونة، رائعة، ويدخلان في شعور لا يوصف، حتى إنها لتغيبُ عن وعيها معه في أثناء لحظات رضاعه، بحيث لو قِسْتَ بترمومتر حساس جدًّا درجة حنانِها لحظتَها لربما انفجر الترمومتر لعدم وجود درجات لديه تتحمل حنانها الرقراق، وحبها الدفَّاق، في هذه اللحظة الرائعة التي لا مثيل لها، ولا تجد لحظاتٍ أثمن منها، فإذا قامتِ القيامة ذهلت الأم عن وليدها هذا، الذي تداخلت معه في لغة خاصة، هي لغة الأمومة، والحنان، فتتركه، وتذهل عنه، بل ربما داست على بطنه، أو على رأسه، ذاهلة عنه، وهي لا تدري: أعاقل ما داست عليه، أم غير عاقل، أهو ابنها أم غيره؟!، حتى إنها لتظنُّه شيئا من الأشياء، لا واحدًا من العقلاء، ويعبر القرآن الكريم عنه بـ(ما) التي هي لغير العاقل، من قوله: (عَمَّا أرضعت)، وليس: (عَمَّنْ أرضعت)، فقد نقلنا مباشرة إلى أجواء الآخرة، وشاهدْنا عن قرب منظرا من مناظر الآخرة يُذيب العظام، ويفجِّر الأفئدة، ويُدْمِي العيون، وترتجف معه الأوصال، وتتقطع من وجله الأجساد، وما أجمل هذا الحوار الذي أجري مع فضيلة الأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي، عندما سُئل عن هذه الآية، فاقرؤوه، وبعيون الفؤاد تفحَّصوه، وتهدَّؤوا في قراءته، وتأمَّلوه:

فقد سُئِلَ الدكتور فاضل السامرائي هذا السؤال في برنامج لمسات بيانية، وكانت هذه إجابته:

سؤال: في سورة الحج، يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾[1] لماذا لم يقل: كل مرضع؟

فكان جوابه كالآتي: د. فاضل: (المرضع من كان لها طفل ترضعه، لكنْ ليس بالضرورة الآن هي ترضعه، يكون عندنا طفل رضيع، حتى في العامية نقول: فلانة مرضع، يعني عندها طفل ترضعه، أما المرضعة فهي التي ألقمتْ ثديها للإرضاع حالا.

المقدِّم: (تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ) يعني هي ترضعه الآن؟

د. فاضل: نعم، الآن، هذه أبعدُ عن الذهول، المرضع قد تكون منشغلة عنه، أما المرضعة فهو الآن في حضنها ترضعه، فكيف تذهل عنه؟! هذا أمر عظيم.

المقدِّم: المرضع لا يستتبع أن يلتقم ثديها؟

د. فاضل: لا، هي تكون مرضعًا، ولكن قد تكون في مكان آخر.

المقدِّم: و(مرضعة) لا بد أن يكون قد التقم طفلها ووليدها ثديها؟

د. فاضل: لا بد، التقم ثديها، مثل: الحائض، والحائضة، الحائض يعني التي بلغت المحيض: (إن الله لا يقبل صلاة حائض إلا بخمار)، يعني بلغت، لو كان يجري دمها لا تصلي، والحائضة التي يجري دمها الآن، هذه حائضة، وأما الحائض فهي التي بلغت السنّ: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾[2]، والمحيض التي بلغت السنّ.

المقدِّم: فاعل وفاعلة، مرضع ومرضعة، التاء تغيِّر الدلالة؟

د. فاضل: أحيانًا تغيرها طبعًا، هي صفات مؤنثة، امرأة حامل، وحاملة، فحامل تحمل جنينا، وحاملة تحمل على ظهرها أيَّ شيء.

المقدِّم: الحامل خصيصًا للتي تحمل جنينًا في بطنها.

(١) سورة الحج، الآية: ٢.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٤.

د. فاضل: امرأة قاعد، وقاعدة، قاعد عن المحيض، وقاعدة ضد الجلوس.

المقدِّم: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

د. فاضل: اللواتي لا يشتغلون، جمع قاعدة.

المقدِّم: اللغة تفرِّق بينهم. إذن هنا المقصود بمرضعة هي التي تلقم الرضيع ثديها.

د. فاضل: نعم، والمفروض أن هذه لا تذهل عن رضيعها، معناه أن الأمر عظيم، يذهل هذه المرضعة عن رضيعها المنشغلة به، وبإرضاعه». أ.هـ.

المحور الثامن: العدول من صيغ النهي في الأفعال إلى صيغ النفي

النموذج الثامن

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[2].

الأصل في الحرف (لا) الناهية أنه يجزم ما بعده من الأفعال المضارعة، فإذا كان المضارع معتل الآخر حُذِفَ آخره، نحو: (ولا تنسَ نصيبك من الدنيا)، ونحو: (ولا تدعُ مع الله إلها آخر)، ونحو: (ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم)، ونحو: (ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك)، ونحو: (ولا تمشِ في الأرض مرحا)، وهكذا فلِمَ بقيَ حرفُ العلة في آخر المعتل هنا في الآية الكريمة، ولمَ يحذف في قوله تعالى: (فلا تنسى) إن اعتبرنا (لا) ناهية؟! وهل فيها أوجه أخرى، هذا موضع حديثنا لبيان وجه الإعجاز البلاغي في تحول الصيغة، والعدول عن الحذف إلى ذكر ألف القصر التي تقابل لام الكلمة، فهل (تنسى) بوزن (تفعل) أم بوزن (تفعى)؟ وما الذي حدث في البنية؟ وما وراء ذلك من دلالة سامية، وتربية إيمانية عالية؟! وكيف تعرب عندئذ في الحالين؟

إن كلمات القرآن الكريم تحتاج في تفهُّمها، وإدراك مراميها ومقاصدها إلى شيء

(١) سورة النور، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ٦.

من الأناة والتأني، وإلى كثير من التروِّي والتؤدة؛ لأن (لا) هنا يمكن تأويلها على أحد توجيهين:

* التوجيه الأول

إن (لا) ناهية حقا، وأن الفعل قد جُزِمَ، وحُذفت ألفه، ولكن استعيرت ألفٌ شكلية لتتناسب مع الفاصلة: قبلها، وبعدها، فالكلمة مجزومة على وفق القاعدة النحوية، وهي على وزن (تفعى)، وليس على وزن (تفعل) بسبب حذف الآخر المقابل للام الميزان، هذا هو الوجه الأول، ولكن ألفها الأخيرة زِيدَتْ لتناغم الفواصل، فهي ألف مستعارة.

* والتوجيه الثاني

إن الفعل المعتل هنا عُومل في الجزم معاملة الصحيح، والصحيح لا يُحذَف آخره، وإنما تُحذَف حركتُه فقط، فيسكن، مثل: (لم يلدْ ولم يولدْ)، فعومل المعتل هنا معاملة الصحيح، وجاء هذا على لهجة من لهجات العرب، تلك اللهجة التي لا تحذف آخر الفعل المعتل، وإنما تسكِّنه فقط، قياسا على ما تفعله مع الصحيح، كما قال شاعرهم:

ألم يأتيك والأنباء تنمى ... بما لاقت لبونُ بني زياد.

ولم يقل: (ألم يأتِك)، ومنه كذلك:

هَجَوْتَ زَبَّانَ ثُمَّ جِئْتَ مُعْتَذِرا ... مِنْ هَجْوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو وَلَمْ تَدَعِ

ولكن هذا الرأي أو التوجيه النحوي الأول باعتبار (لا) ناهية هو رأي مرجوح، ضعيف، ولا يليق بمقام النبوة، والأجدى أن نرتكن إلى التوجيه الثاني الأقوى، الذي يتناسب مع مقام النبوة، وما حدثتْنا به الآياتُ القرآنيةُ نفسُها، حيث أبانت عن مكانة القرآن الكريم في قلب النبي صلى الله عليه – وآله – وسلم، ذلك الذي قيل في حقه الشريف: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه)، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ

وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾[1]، فقد جمعه الله له، وثبته في قلبه، ورسخه ومكنه في فؤاده، وكان صلى الله عليه – وآله – وسلم قائما به، قاعدا، ماشيا واقفا، مسافرا، مقيما، عاش له، ولأجله، ولحبه، وتلاوته، ونشره، وتعليمه، فكيف بعد كل هذا ينساه، وينهاه الله عن نسيانه، إن اعتبار (لا) هنا نافية غير عاملة هو الأدخل في مقام النبوة، والأولى في مكانة القرآن الكريم في قلب رسول الله صلى الله عليه – وآله – وسلم، ويكون المعنى مع جعلها نافية: (سنقرئك، وتكون نتيجة إقرائنا إياك أنك لا تنسى، أو فأنت بعد إقرائنا إياك لا تنسى)، ولا نلتمس أوجهَ إعرابٍ ضعيفة من هنا أو هناك، ونرتكن إلى أعاريب تَجري على لغة ضعيفة، أو لهجة مغمورة، بل (لا) هنا نافية، لا ناهية، والفعل المضارع بعدها مرفوع، وعلامة رفعه الضمة المقدرة على آخره، منع من ظهورها التعذر، كما في: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾[2]، ونحو: (وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى)، وهكذا ظهرت البنية القرآنية محققةً للدلالة العميقة التي سيقت لها، وسيق من أجلها الرسم المصحفي، فقد تعانق الرسم والمعنى، وجاءا معاً لبيان منزلة النبوة، ومقامها السامي، ونظرة القرآن لمقام النبوة، ومكانة الرسول صلى الله عليه – وآله – وسلم عند ربه ومولاه.

المحور التاسع: العدول من صيغ مشهورة (تفاعلتم) إلى صيغ غير مشهورة (اتفاعلتم)

النموذج التاسع

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١٧-١٨.

(٢) سورة عبس، الآيتان: ٣-٤.

ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ... ﴾[1].

وردت البِنية القرآنية مضغوطة بتشكيلتها الصوتية الصعبة: نطقا وأداءً، ومعنى ودلالة: (اِثَّاقَلْتُمْ)، فَلِمَ عُدِل عن (تثاقلتم) اليسيرة السهلة إلى (اثاقلتم) الشديدة الوقع، الصعبة النطق، التي تكاد روح القارئ تخرج معها، حيث ينحبس معها الهواء، ويَخرج اللسان في نطق الثاء، وتأتي ألف المد؛ لتُخرِج كلَّ ما في الرئة من هواء، ثم تأتي القاف القوية المفخمة، تعقبها اللام الخارجة من جوانب الفم، إنها تشكيلة صوتية متعبة، فلم كان ذلك؟! وهل علم الصرف يمكنه أن يبيِّنَ لنا تلك الدلالة العميقة للكلمة، ويقفنا على ظلها البلاغيّ، ومرادها الخفيّ؟

وما الذي حدث صرفيا لتلك الصيغة، ولبنيتها؟ وما الظل التربوي الذي يقف خلف اختيار تلك البنية، وهذا العدول عن البنية الميسرة الخفيفة: (تثاقلتم)؟

تلك البِنية القرآنية مضغوطة: (اِثَّاقَلْتُمْ)، فَلِمَ عُدِل عن (تثاقلتم) اليسيرة السهلة إلى (اثاقلتم) الشديدة الوقع، الصعبة النطق، التي تكاد روح القارئ تخرج معها، حيث ينحبس معها الهواء، ويَخرج اللسان في نطق الثاء، وتأتي ألف المد؛ لتُخرِج كلَّ ما في الرئة من هواء، ثم تأتي القاف القوية المفخمة، تعقبها اللام الخارجة من جوانب الفم، إنها تشكيلة صوتية متعبة، فلم كان ذلك؟! وهل علم الصرف يمكنه أن يبيِّنَ لنا تلك الدلالة العميقة للكلمة، ويقفنا على ظلها البلاغيّ، ومرادها الخفيّ؟

إن علماء الصرف يقولون: إن أصلها (تَثاقلتم) بوزن (تَفاعلتم)، ثم تسكَّن الثاء تبعًا لكسل المتحدَّث عنه، وإيضاحا لخوره وضعفه، وخوفه، وجبنه، فشكلت الصيغة كل ذلك في تلك الصور المتكاسلة في البنية الصرفية تحكي كالمرآة كل ما حدث من صاحبها، فاضحة إياه في جبنه وخوفه وهلعه، واصطكاك رجليه، وارتطام أسنانه العليا

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

في أسنانه السفلى، وعدم نهوضه، وقيامه بصورة تدعو إلى الضيق، والنفرة، وقد ملأ الجبن فؤاده، وأطار الهلع الكَرَى عن عينيه، فإذا سُكِّنت تعذَّر البدءُ بالساكن، فاجتُلِبت تلك الحركةُ الارتكازية المسمَّاة ألفَ الوصل؛ للتخلص من البدء بالساكن، فتصير من: (تَثَاقلتم) بفتح التاء، إلى (تْثاقلتم) بتسكين التاء، ثم تجتلب ألف الوصل، فتصير: إلى (اتْثَاقلتم)، ثم نجد تاء ساكنة، تتبعها ثاء متحركة بالفتح، وفي ذلك صعوبة على اللسان، كصعوبة قيام المتثاقل عن الجهاد، والمتخلِّي عن النُّفرة في سبيل الله، من الخوف، ويحصل منه التمسك الشديد بالأرض، والتشبث بالحياة، فتبدل التاء ثاء لتماثل ما بعدها فتصير: (اثْثَاقلتم) بثاءين، أولاهما ساكن، وثانيهما متحرك، فتُوجِب اللغة إدغامهما في بعضهما، فتصير الصيغة في النهاية: (اثَّاقلتم) بثاء واحدة مشددة، فيها من الصعوبة والبطء في النطق ما يتشابه مع تثاقل صاحبها الذي يُرفَع ليقوم، فيتكاسل مسمتسكًا بالأرض، متثاقلا عن الجهاد، ويأخذ بيد من يقيمه إلى الأرض لثقله، وتقاعسه، وارتباطه بالطين، والتراب، فمراحل التغييرات الصرفية كأنها تشابه، وتحاكي، وتضارع حالاتِ الفعل: (اثَّاقلتم) بتلك التشكيلة الصوتية، فتبرز صورة هذا المتنكب طريقَ الجهاد، الذي تكاد تدور عيناه في مقلتيهما: هلعا وفزعا، وخوفا ووجلا من الموت، فهو يُقام به، فلا يقوم، ويُشَدُّ ليُرْتَفَعَ به إلى أعلى، فيتثاقل، حتى يأخذ بيد مُعِينه إلى الأرض؛ لثقله، وتشبُّثه بالأرض، فجاءت الصيغة الصرفية بتشكيلاتها الصوتية، وتغييراتها الصرفية؛ لتبين لنا مراحل رؤية هذا الرجل الذي تمسَّك بالدنيا، والتصق بالأرض، وأخلد إلى حياة الدعة والسكون، ولم يسمع لنداء الله:» ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض». فيالها من بنية صرفية- بعُدولها عن أصلها- أدَّت وظيفتها، ورسمت بتشكيلها دلالتها، وأبانت عن صنف من الناس غريب عجيب، لم يملأ حبُّ الله قلبَه.

ومنه كذلك، وفي السياق ذاته قوله تعالى: ﴿...حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا

وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا... ﴾[1]، تلك الصيغة الصرفية التي تبين اتخاذ الأرض موضعَ زخرفها، المتمثل في تحضرها، وبلوغها شأوا بعيدا، وتسنُّمها درجات الحضارة، والسؤدد، والمجد، فتجيء التغييراتُ الصرفية؛ لتبرز طبيعة تلك التغييرات الواقعية للأرض، وما حدث لها من تطور وحضارة ظنت معها أنها أمسكت بقوانين الأرض، تفعل بها ما تشاء، وتميل بها حيثما تريد، وكأن كلَّ تغيير في البنية الصرفية هو بمثابة حقبة زمنية، خلعت فيها الأرض زخرفا، ولبست زخرفا حضاريا آخرَ، وتقلبتْ في ثياب التحضر التَّقْنِيِّ، والرقيِّ العلميِّ، حتى إذا أخذت زينتها الأخيرة التي تظن معها أنها قد وصلت معها إلى امتلاك ناصية الأرض، وتسيير دفة الكون، وراحت كأنها أمسكتْ بزمام الأمر كله، ونسيت أن للكون ربًّا، وللدنيا كلها إلهًا وخالقًا، حيث قال جل جلاله: (له ملك السموات والأرض إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون)، يسير كونه بأسرع حرفين نطقا، بـ(كن)، إذا بهم، وهم في قمة الزهو والتحضر، وأنهم لا أحد يملك ما ملكوا، وأن بيدهم مقاليد الأرض إذ بهم تفاجئهم منازلُ الآخرة، حيث تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسجير البحار، ونزول الملائكة من السماء، وتفتيح أبواب السماء، وانشقاق السماء وانفطارها، وكل أحداث الآخرة تحوط بهم، يقول الله تعالى: ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾، جاءتْها القدرةُ الإلهية القادرة المقتدرة، فَسَوَّتْها بالأرض، فعادت كأنها لم تكن، وما كان عليها أحد، أو ما نشأ عليها ديَّارٌ، فصارت هباءً كأنْ لم تكن من قبل، وانظر إلى التغييرات الصرفية في كلمة:» ازَّينت»؛ لتعرف مراحل التطور الحضاري الذي بلغته الأرضُ في كل مرحلة وحقبة زمنية: طالت، أو قصرت، هكذا:

أصلها: (تَزَيَّنَتْ)، ثم (اتْزيَّنت)، ثم سُكِّنَتِ التاءُ الأولى، فصارت (تْزَيَّنت)، ثم

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

اجتُلبت ألف وصل للتخلص من النطق بالساكن، فصارت: (اتْزَيَّنَتْ)، ثم قُلِبت التاءُ زايًا؛ لتشاكل الزاي بعدها: (ازْزَيَّنَتْ)، ثم حدث إدغام الزاي في الزاي، فكُتبت زايًا واحدة مشددة: (ازَّيَّنَتْ)، خمسة أعمال صرفية، وتغييرات في البِنْية حتى وصلت إلى صورتها الأخيرة التي تبين- كما سبق- مراحل تطور الأرض، وتحضرها، ووجاهتها، واكتمالها.

فصارت الصيغة أو البنية الصرفية تتألق وتتأنق وتزهو، فالكلمة تزَّيَّن، فوق ما تتزين، واللفظة تصدر بريقها وتعدد زينتها، وأنها كالعروس التي تُوِّجَتْ ليومها، فهي ترتدي كل ألوان الجمال، وكمال الثياب، التي تعني حقب التطور، وأزمنة التحضر التي عاشتها الأرض لتصل إلى أوج تحضرها، وزهو أهلها بها، وافتتانهم بتطوراتها وتقنياتها العالية المتقدمة، حيث يصل الواحد منهم من أقصاها إلى أقصاها بضغطة هاتفه ويتنقل بين القارات بضغطة أنملة، وقد يطير بنفسه إلى الأقمار، والأجرام السماوية الأخرى بضغطة على هاتف حديث، يأتي إلى من بعدنا من الحقب الأخرى فيما بعد زماننا، وقد يتنقل الناسُ بطائرات خاصة أو سيارات مخترعة لم نرها حتى الآن، يتنقلون بها فيما بينهم، وتكون هناك محطَّات هوائية ينتظر الناس فيها لما ينقلهم إلى أعمالهم عبر السيارات الهوائية، أو القطارات الهوائية، أو الطائرات الخاصة التي تقيمها بعض الدول لأبنائها تيسيرا عليهم، أو تلك التي سيمتلكها كل منهم كالهاتف الذي لم نكن نحلم يوما ما بكل ما قدَّمه، ويقدمه، وما سوف يقدمه من خدمات عبر الرسائل الاليكترونية، وسيبيع، ويشتري من خلاله كما هو الحاصل اليوم، ويرسل الأموال الطائلة عبر أيقونة يضغط عليها، فتدخل الأموال إلى حسابات من يشاء من التجار، ويعقد الصفقات من هاتفه، وهو في بيته جالسا واضعا ساق على ساق، بل يعقد الزواج بالهاتف النقال، وكما شاهدت عشرات الأبحاث الحديثة تتكلم عن التجارات الإليكترونية، ويتم بكل أريحية

الشراءُ، والبيعُ، وقد رأينا – في بلاء كورونا– ما رأينا من ذلك، وابتُدعت أمور لم نكن يوما ما نتخيلها، كتلك اللقاءات العلمية، والمناقشات البحثية عبر اللقاء الافتراضي، أو التعليم عن بُعْد الذي شاع في كل البلدان، وفي كل المراحل التعليمية حتى الابتدائية منها، وقد يدخل فيه ومن خلاله طلاب من بلدان عدةٍ في آنٍ واحدٍ، يتعلمون وينالون أرفع الشهادات، ولم يروا البلدان التي نالوا منها شهاداتهم، ولم يلتقوا مع أساتذتهم وجهًا لوجه مرة واحدة، وقد يصيرون زملاء لأساتذتهم مستقبلا، إنها أمور يشيب لها الوليد، فسبحان الله على نعمة القرآن، وجلال بِنَاه، وجُمله، وجلال تراكيبه، وأساليبه!!.

المحور العاشر: العدول من صيغة اللفيف المقرون واوي اللام إلى يائيِّ اللام مع الإدغام

النموذج العاشر

والأخير: قوله – تعالى – وهو النموذج الذي نختم به هو ما حدث من دلالة لهذه الكلمة:(حيَّ) في هذا القول الكريم: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ... ﴾[1].

فكلمة (حيَّ) بوزن (فَعَلَ)، أصلها (حَيِوَ) فعينُها ياء، ولامها واو؛ بدليل أنهم قد جمعوا (حياة) على (حيوات)، وأن القرآن الكريم يرسم كلمة: «حياة» بواو، هكذا (حيوة)، وكذلك كلمة (زكاة)، يرسمها هكذا:(زكوة)، وكلمة (صلاة) يرسمها هكذا: (صلوة)، وهناك ألف صغيرة تكون في منتصف الواو في كلِّ تلك الكلمات؛ لتنطق ألفا لا واوا، لكنها تشير إلى أصل فعلها، وهو:(حيو – زكو – صلو)، وكذلك بدليل قوله – تعالى–: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[2]، لكنْ ما الذى حدث في «حيَّ» من الناحية الصرفية حتى وصلت إلى تلك الصورة التي وردت في كتاب الله – تعالى –؟، إن أصل هذه الصيغة هو: حَيِوَ، ثم حدث إعلال بالقلب، حيث

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

ختمت الكلمة بواو متطرفة قبلها كسر، فتقلب ياء لتصير:(حَيِيَ)، ثم تحذف كسرة الياء الأولى لثقلها؛ لكونها موجودة تحت حرف علة، لا يتحملها، فهي أقوى الحركات، وهو أضعف الحروف، فإذا حُذِفت الكسرة سكنت الياء، فاجتمع حرفان متماثلان، وأولهما ساكن، فتوجب الإدغام، فتسكن الياء (حَيْيَ)، ثم يحدث إدغام للياء في الياء، فتصير من:(حَيْيَ) إلى(حَيَّ) بياء واحدة مشددة، تشعرك بالقوة، رغم أن الفعل من قبيل المعتل اللفيف المقرون؛ لاجتماع حرفي علة هما عين الكلمة ولامها متتاليين، فكأن الكلمة تدل على معناها، وهو الحياة، فالكلمة حدث لها أربع حيوات، هكذا: (حَيِوَ-حَيِيَ-حَيْيَ- حَيَّ)، فحققت معنى الحياة الذي سِيقت في الأصل له، فالبنية القرآنية بتشكيلتها الصوتية، واللغوية، وعدولها عن أصلها في المعجم، كأنها تُحْيِي ما وراءها من دلالة، وترسم ما أتتْ له من معنى، بحيث لم تحتجْ معه إلى تفسيرٍ؛ لأنها تفسر نفسها، وتكشف عن دلالتها بذاتها، ونجد في كل تلك النماذج أن علم الصرف قد كشف لنا عن تلك التغييرات التي هي بمنزلة حياة بعد حياة، ونشاط وعمل، من بعد نشاط وعمل، يتلوه نشاط آخر وعمل ثانٍ، كأنها تبيِّن من خلال بنيتها الصرفية دلالاتها المعنوية.

نتائج البحث

كان من أهم نتائج البحث ما يأتي:

هذا ما تميَّز به أسلوب القرآن، وبدا لنا من خلال عرضنا لبعض نماذجه كيف أن التحول في البنية، أو كما يحلو للمحدثين أن يسموه» بالعدول الصرفي» كان وراء بيان كل تلك الدلالات، وهاتيك المعاني والقيم، والرؤى والأفكار الجديدة، وسيظل عطاء القرآن مستمرا، باقيا، متجددا، حتى يرث الله الأرض، ومن عليها، فالحمد لله رب العالمين: أنْ جعلنا من أهل القرآن، ومن الذائدين عن حياضه، والمبيِّنِين لجلاله، الموضحين لكماله، الشارحين لجماله، وبإذن الله نكون من المستشْهَدِين في سبيله، اللهم لك الحمد على نعمة القرآن الكريم، ونعمة فهْمه، وارزقنا حفظه، والوقوف على مراداته، وكمالاته، والعمل به، والدعوة إليه.

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة، (د.ت).

٢. أثر القرآن والقراءات في النحو العربي، د. محمد سمير نجيب اللبدي، دار الكتب، الكويت ١٩٧٨.

٣. أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين القطّ، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢.

٤. أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق محمد رشيد رضا، ط١، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٢.

٥. الإعجاز البلاغي في صيغ الألفاظ، دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن، د. محمد أمين الخفري، ط١، مطبعة الحسين الإسلامية ٢٠٠١.

٦. الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، د. عبد الحميد احمد يوسف هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ٢٠٠١.

٧. إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد احمد صقر، دار المعارف، مصر ١٩٦٣.

٨. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، تحقيق: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٢.

٩. درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الاسكافي (٤٠٢هـ)، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط١، بيروت١٩٧٣.

١٠. دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات، ط٢، عالم الكتب، القاهرة١٩٦٧.

١١. دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤٧هـ)، ط١، تعليق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، مطبعة الفجالة بمصر ١٩٦٩.

١٢. دلالات العدول الصرفي في القرآن الكريم- رسالة دكتوراه- عبد الناصر مشري- ٢٠١٣- ٢٠١٤ م.
١٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل محمود الألوسي، (١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
١٤. الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (٣٢٢هـ)، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، ط١، مركز الدراسات والبحوث اليمني ١٩٦٤.
١٥. العدول الصرفي - دراسة دلالية - هلال علي الجحيشي- رسالة دكتوراه- ١٩٧٢ - كلية الآداب جامعة الموصل- العراق.
١٦. العدول الصرفي بين التقعيد والتبرير لغة القرآن تأسيسا د. بلقاسم براهيم- جامعة مستغانم، الجزائر- مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد العشرون ٢٠٢٠. http://annales.univ-mosta.dz
١٧. العدول الصرفي في القرآن الكريم راند فريد نجيب طافش جامعة اليرموك - كلية الآداب - ١٩٩٨ م.
١٨. العدول في القرآن الكريم/ دراسة صرفيّة بلاغيّة/ أحلام طاهر عباس جابر- ٢٠١٣م.
١٩. معاني الأبنية في العربية - د فاضل صالح السامرائي: دار عمار، ط٢، عمان، الأردن، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.
٢٠. مقاصِد العُدول الصَّرفي في سورَة البَقَرة- خضر حشلافي- بدون.
٢١. نظرات في إعجاز القرآن، د. حسن منديل حسن العكيلي، مجلة كلية التربية للبنات، ج٢، ١٩٦٢.
٢٢. نكت الانتصار لنقل القرآن، أبو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية، دار بور سعيد للطباعة ١٩٧١.
٢٣. النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٤ هـ)، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، ط٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٨.
٢٤. النيابة النحوية في القرآن الكريم وأنماطها ودلالاتها، د. هادي نهر، ط١، صنعاء ٢٠٠٢.

لله ما في السموات وما في الأرض
الشورى ٤